الفَهْمُ الخَاطِئُ
فِي التَّدَبُّرِ
وسُبُلُ الوِقَايَةِ مِنْهُ

إعداد:

أ. إبراهيم محمد محمود عبده

مقدمة

إن الله ﷻ أنزل كتاباً من السماء وهو القرآن الكريم، وأمرنا بتدبره والتعبد به وتطبيق أحكامه وشرائعه ؛ ليكون لنا نبراساً يضيء لنا الطريق، فبيّن لنا فضله وفضل تدبره وقراءته وعاقبة هجره، لكنَّ مسألة التدبر والتأمل في القرآن وإرادة معرفة المعاني وما اشتمل عليه من الفوائد والحِكم والأحكام مسألة لابد لها من ضوابط من الشريعة الإسلامية، وإلا فإن الإنسان المسلم ينحرف بدونها.

وهذه الدراسة جاءت لبيان ضوابط الفهم الصحيح في التدبر، والوقاية من الفهم الخاطئ لآيات القرآن الكريم.

أهمية الموضوع:

تظهر أهمية هذا الموضوع من خلال العناصر الآتية:

١. أنه من الموضوعات التي تخص كتاب ربنا ﷿.
٢. أنه من الموضوعات التي تمس مسألة مهمة في حياة الأمة، وهي مسألة فهم مراد الله ﷻ.

أسباب اختيار الموضوع:

١. ترجع أسباب اختيار الموضوع إلى العناصر الآتية:
٢. بيان أهمية تدبر القرآن في حياة الفرد والأمة.
٣. وضع منهجية لتدبر القرآن، وقايةً من الوقوع في الفهم الخاطئ لآياته ومعانيه، ومن ثَمَّ الزيغ والضلال .

خطة البحث:

اشتملت خطة البحث على: مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة، على النحو التالي:

المبحث الأول: تعريف التدبر وأهميته.

المبحث الثاني: من أسباب الفهم الخاطئ في تدبر القرآن.

المبحث الثالث: أمثلة على الفهم الخاطئ في تدبر القرآن.

المبحث الرابع: من نتاج الفهم الخاطئ في التدبر.

المبحث الخامس: سُبل الوقاية والعلاج من الفهم الخاطئ في التدبر.

ثم الخاتمة والتي تشتمل على أهم النتائج والتوصيات التي توصل لها الباحث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: تَعْرِيْفُ التَّدَّبُرِ وأَهَمِّيَّتُهُ

أولاً: تعريف التدبر:

التّدبّر في اللغة مصدر تدبّر وهو مأخوذ من مادّة (د ب ر) الّتي يقول عنها ابن فارس: "أصل هذا الباب أنّ جلّه في قياس واحد وهو آخر الشّيء وخلفه خلاف قبله، فمعظم الباب أنّ الدّبر خلاف القبل، وفي الحديث (لا تدابروا)، وهو من الباب ؛ وذلك أن يترك كلّ واحد منهما الإقبال على صاحبه بوجهه" (١)، وقال ابن منظور: "دبّر الأمر وتدبّره نظر في عاقبته، واستدبره رأى في عاقبته ما لم ير في صدره، وعرف الأمر تدبّرا أي: بأخرة، قال جرير: ولا تتّقون الشّرّ حتّى يصيبكم ... ولا تعرفون الأمر إلّا تدبّرا، والتّدبير في الأمر أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتّدبّر في الأمر التّفكّر فيه، وفلان ما يدري قبال الأمر من دباره أي أوّله من آخره، ويقال: إنّ فلانا لو استقبل من أمره ما استدبره لهدي لوجهة أمره، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره"(٢).

وأمّا تعريف التّدبّر اصطلاحاً: فهو النّظر في عواقب الأمور وهو قريب من التّفكّر، إلّا أنّ التّفكّر تصرّف القلب بالنّظر في الدّليل والتّدبّر تصرّفه بالنّظر في العواقب(٣)، فتدبّر القرآن هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبّره وتعقّله، وهو المقصود بإنزاله لا مجرّد تلاوته بلا فهم ولا تدبّر(٤).

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٣٢٤).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٢٧٣).

(٣) انظر: التعريفات للجرجاني (٥٤).

(٤) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٧٥).

ثانياً: أهمية التدبر:

إن الله عَزَّ وَجَلَّ أمر بتدبر القرآن فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] ، ومن رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يسّر هذا الذكر للادكار لمن يريد أن يدكر ويتذكر، فقال الله –تعالى– ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ القمر: الآية٤٠ ، وقد كان السلف –رحمهم الله تعالى– يأخذون هذا القرآن بقوة، ويعرفون معناه، ويطلبون المعنى الذي أراده الله عَزَّ وَجَلَّ، وكانوا كذلك في غاية الدقة، والحرص، وفي غاية التحرج وهم يفسرون الآيات ، والعلماء الواحد منهم يعلم أنه لو قال برأيه في القرآن فأصاب فقد أخطأ، فكان أحدهم عندما يفسّر القرآن يعلم تماماً أنه إذا خاض في آية ليس عنده علم بها أنه سيأثم حتى وإن كان ما قاله صواباً ؛ ولذلك قال ابن كثير –رحمه الله– معلقاً على قولهم: "من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ"، قال: "أي أخطأ؛ لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر، لكنه قد أخطأ ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه"(١)، ولذلك كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟!"(٢)، وكان ابن أبي مليكة يقول: "سئل ابن عباس عن آية، لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها"(٣)، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من شدة اعتناءهم بالفهم والتدبر إذا تعلَّم الواحد منهم عَشْر آياتٍ لم يجاوزهُنّ حتى يعرف معانيهُنَّ، والعملَ بهنَّ، كما روي ذلك عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ١١)

(٢)جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (١/ ٧٨).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (١/ ٨٦).

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (١/ ٨٠).

وتكمن أهمية التدبر في الفوائد والثمار التي يقطفها العبد نتيجة تأمله وتدبره لآيات الله، فالتدبر يفضي إلى رسوخ الإيمان في القلب، ويجعل الإنسان راغباً راهباً، يتخلص من العجب والغرور بالنفس المفضي إلى الهلاك ، كما حصل مع الجبابرة الذين تحدث عنهم القرآن كفرعون وقارون وهامان، ومن فوائده: تحقيق الحزم والفطنة والحكمة من خلال التأمل في معاني القرآن الكريم وأسراره، ومن ثمراته دقّة التّمييز بين الطّيّب والخبيث، والفاسد والصّحيح؛ عند التمعن والنظر في الأمثلة التي ضربها القرآن على ذلك. والتدبر قيمة عقليّة كبرى تؤدّي إلى يقظة الأفراد ونهضة الأمم، لذلك يقول ابن القيم -رحمه الله- : "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبّر القرآن، وإطالة التّأمّل وجمع الفكر على معاني آياته، فإنّها تطلع العبد على معالم الخير والشّرّ بحذافيرها، وتضع في يده مفاتيح كنوز السّعادة والعلوم النّافعة، وتثبّت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صورة الدّنيا والأخرة، والجنّة والنّار في قلبه، وتحضره بين الأمم وتريه أيّام اللّه فيهم، وتبصّره مواقع العبر، وتشهده عدل اللّه وفضله، وتعرّفه طريق أهل الجنّة وأهل النّار وأعمالهم، ومراتب أهل السّعادة وأهل الشّقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وتعرّفه ما يدعو إليه الشّيطان، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه، فهذه أمور ضروريّ للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتّى كأنّه فيها، وتغيّبه عن الدّنيا حتّى كأنّه ليس فيها، وتعطيه فرقانا ونورا يفرّق به بين الهدى والضّلال، والغيّ والرّشاد، وتعطيه قوّة في قلبه، وحياة واسعة وانشراحا وبهجة وسرورا، فيصير في شأن والنّاس في شأن آخر"(١).

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٨٥- ٤٨٦)، بتصرف.

المَبْحَثُ الثَّانِي: أَسْبَابُ الفَهْمِ الخَاطِئِ فِي تَدَبُرِ القُرآنِ

أولاً: الزيغ والانحراف العقدي: فمن كانت عقيدته منحرفة ودخل في فهم القرآن، فإنه لا بد أن يضل في القرآن ؛ ولذلك تجد طوائف كثيرة ممن انتسبوا إلى الإسلام عندما دخلوا في القرآن وعندهم قواعد سابقة من الضلال في العقيدة، انحرفوا انحرافاً كبيراً، ولا أدل على ذلك من استدلال كافة الفرق المنحرفة لصحة مذاهبهم بالقرآن، حتى ولو كانت استدلالات شاذة، فمثلاً يستدل المعتزلة على صحة مذهبهم بأن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [مريم: ٤٨] ، قالوا: بما أن إبراهيم اعتزل إذاً الاعتزال هو الصحيح، وهذا هو الضلال البعيد في فهم القرآن الكريم.

ثانياً: اتباع الهوى يعمي ويصم عن فهم القرآن: فمن الناس من يكون اتباعهم للهوى في فهمهم للقرآن ناتجاً عن التهجم على كتاب الله والجرأة عليه بغير علم، كل واحد يظن نفسه أنه سيفتي في القرآن حسب رؤيته ونظرته هو، فيدخل ويفسر مشرقاً ومغرباً، فتجده يقع في التخبط الشديد والضلال البعيد، ومنهم من يحمله الهوى على محاولة تبرير أخطائه لتشهد الآيات عليها، وفي ذلك يقول ابن تيميّة- رحمه اللّه-: "صاحب الهوى يعميه الهوى ويصمّه، فلا يستحضر ما للّه ورسوله في الأمر ولا يطلبه أصلاً، فليس قصده أن يكون الدّين كلّه للّه، وأن تكون كلمة اللّه هي العليا ، بل قصده الحميّة لنفسه وطائفته أو الرّياء"(١)، ويبين الشّاطبيُّ- رحمه اللّه- أن اتباع الهوى سبب للفهم الخاطئ الذي وقع فيه أهل البدع، فقال وهو يذكر علامات أهل البدع، منها: الفرقة الّتي نبّه عليها قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ** ﴾[الأنعام: ١٥٩] ، وقوله: ﴿ **وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ** ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ، أي أنّهم صاروا فرقا لاتّباع أهوائهم، وبمفارقة الدّين تشتّتت

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٥/ ٢٥٥- ٢٥٦).

أهواؤهم فافترقوا ثمّ برّأ اللّه نبيّه منهم بقوله: ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾[الأنعام: ١٥٩] ، ثمّ ذكر أنّ اتّباع الهوى طريق إلى الضلال والحياد عن طريق الحق، مؤكداً ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران: ٧] ، وهو الميل عن الحقّ اتّباعا للهوى، وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[القصص: ٥٠] ، وقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] (١).

ثالثاً: الكبر من موانع الفهم الصحيح: إن المتأمل في أحوال المعرضين عن فهم كتاب الله وتدبر آياته، سيجد أن اتباعهم للهوى وإعراضهم عن كتاب الله، إنما هو نتيجة من نتائج الكبر الذي هو مانع كبير من موانع الفهم والتدبر. يقول المولى ﷻ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ، قال سفيان ابن عُيَينة في تفسير هذه الآية: "سأنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي"، وقال بعض السلف: "لا ينال العلم حيي ولا مستكبر"(٢).

رابعاً: التعصب والتقليد الأعمى لطائفة أو مذهب بعينه: إن من موانع الفهم الصحيح لكتاب الله –تعالى- التقليد الأعمى من غير إعمال للعقل والرجوع لأقوال أهل العلم في ذلك، فالتعصب والتقليد الجامد تعطيل للفكر وجعل العقل تابع لغيره؛ وقد تحدث عن هذا الإمام الغزالي، وهو يذكر موانع الفهم لكتاب الله، فقال: "أن يكون مقلّدا لمذهب سمعه بالتقليد، وجمد عليه، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، فهذا شخص قيَّده معتقده عن أن يجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٤/ ١٠٤- ١٠٧) بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٧٥).

معتقده، فصار نظره موقوفا على مسموعه، فإن لمع برق على بعد، وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه؛ حمل عليه شيطان التقليد حملة، وقال كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله"(١).

خامساً: اتباع المتشابهات وترك المحكم من كتاب الله: فلقد حذَّر النبي ﷺ من اتباع المتشبهات وعدم ردها إلى المحكم من كتاب الله، فعن عائشة –رضي الله عنها –قالت: "تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧] ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ(٢). وقال الخَطَّابي: "المتشابه على ضربين، أحدهما: ما إذا رد إلى المحكم واعتبر به عرف معناه، والآخر ما لا سبيل إلى الوقوف على حقيقته، وهو الذي يتبعه أهل الزيغ، فيطلبون تأويله، ولا يبلغون كُنْهَه فيرتابون فيه، فيفتتنون"، وقال ابن الحصَّار: "قسَّم الله آيات القرآن إلى محكم ومتشابه، وأخبر عن المحكمات أنها أم الكتاب ؛ لأن إليها ترد المتشابهات، وهي التي تعتمد في فهم مراد الله من خلقه في كل ما تعبدهم به من معرفته، وتصديق رسله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وبهذا الاعتبار كانت أمهات، ثم أخبر عن الذين في قلوبهم زيغ أنهم هم الذين يتبعون ما تشابه منه، ومعنى ذلك: أن من لم يكن على يقين من المحكمات، وفي قلبه شك واسترابة، كانت راحته في تتبع المشكلات المتشابهات.

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي (١/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣/٦)، كتاب التفسير، باب {منه آيات محكمات}، حديث رقم٤٥٤٧، وأخرجه مسلم (٢٠٥٣/٤)، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه، حديث رقم٢٦٦٥.

ومراد الشارع منها التقدم إلى فهم المحكمات، وتقديم الأمهات، حتى إذا حصل اليقين، ورسخ العلم، لم تبال بما أشكل عليك. ومراد هذا الذي في قلبه زيغ التقدم إلى المشكلات، وفهم المتشابه قبل فهم الأمهات وهو عكس المعقول والمعتاد والمشروع"(١). وقال الشاطبي: "ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾[آل عمران: ٧] ، فأثبت لهم الزيغ أولا، وهو الميل عن الصواب، ثم اتباع المتشابه وهو خلاف المحكم الواضح المعنى، الذي هو أم الكتاب ومعظمه، ومتشابهه على هذا قليل، فتركوا اتباع المعظم إلى اتباع الأقل المتشابه الذي لا يعطي مفهوما واضحا؛ ابتغاء تأويله، وطلبا لمعناه الذي لا يعلمه إلا الله، أو يعلمه الله والراسخون في العلم، وليس إلا برده إلى المحكم ولم يفعل المبتدعة ذلك"(٢).

سادساً: الاعتماد على الأحاديث الواهية والضعيفة عند التدبر والتفسير، ورد الأحاديث الثابتة والصحيحة: فالشاطبي – رحمه الله – يؤكد أن الحديث الضعيف فضلاً عن الأحاديث الموضوعة المكذوبة على النبي ﷺ لا يغلب على الظن أن النبي ﷺ قالها، لذلك لا يصح أن يؤخذ منه حكم؛ لأن أمثال هذه الأحاديث لا يبنى عليها حكم، ولا تجعل أصلاً في التشريع أبداً، ومن جعلها كذلك؛ فهو جاهل أو مخطئ في نقل العلم، ويرى أن الحديث إذا كان مخالفاً لأصل من أصول الشريعة إنما هو حديث ضعيف وإن كان ظاهره الصحة، ويرى أن سبب الضعف يعود إلى وهم وغلط ونسيان بعض الرواة(٣). وبجانب الاعتماد على الأحاديث الواهية لجأ بعض المبتدعة لمخالفة النصوص الشرعية الثابتة عن رسول الله ﷺ ؛ لأنها غير موافقة لأهوائهم فردوها بدعوى أنها مخالفة للمعقول، وغير جارية

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ١٣٤٩).

(٢) الاعتصام للشاطبي (١/ ١٩٠).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/٢٨٧-٢٨٨) بتصرف.

على مقتضى الدليل، كالمنكرين لعذاب القبر، والصراط، والميزان، ورؤية الله عَزَّ وَجَلَّ في الآخرة، وما أشبه ذلك من الأحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول(١)، ويرى الشاطبي أن من الأسباب التي يدعي المبتدعة ردهم للأحاديث الصحيحة أنها تفيد الظن مع أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد ذم الظن في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾[النجم: ٢٣] ، وقال: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨](٢)، وما جاء في معناه، حتى أحلوا أشياء مما حرمها الله تعالى على لسان نبيه ﷺ (٣).

سابعاً: الجهل بالناسخ والمنسوخ يؤدي إلى الفهم الخاطئ: إن الذي يبحث عن فهم كتاب الله وتدبره لا بد ألا ينأى بجانبه عن معرفة الناسخ والمنسوخ من كتاب الله؛ لأن معرفة الناسخ والمنسوخ تقرب المسافة وتسهل المهمة لفهم كتاب الله ؛ لذلك كان الصحابة الكرام والأئمة من بعدهم يحرصون على هذا العلم، قال الزركشي: "قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسّر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال علي بن أبي طالب ﵁ لقاص: " أتعرف الناسخ والمنسوخ؟" قال: الله أعلم. قال: " هلكت وأهلكت"" (٤) – يريد أنه عرّض نفسه وعرض الناس للهلاك، مادام أنه لا يعرف الناسخ من المنسوخ–، وجاء في الأثر أن ابن عباس ﵄ فسّر الحكمة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩] ، فسّرها بالمعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه،

---

(١) الاعتصام للشاطبي (٢٩٤/١) بتصرف.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٨.

(٣) الاعتصام للشاطبي (٢٩٨/١) بتصرف.

(٤) البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي (٢/ ٢٩).

ومقدّمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله(١)، ويقول القرطبي في بيان أهمية معرفة النسخ: "معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلاَّ الجهلة الأغبياء، لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام"(٢).

ثامناً: الجهل بأسباب النزول: فالجهل بأسباب النزول، وعدم معرفة الأسباب والملابسات المحيطة بالنص القرآني، تؤدي إلى الشرود عن فقهه، وعدم فهم المراد منه ؛ لذلك يقول الواحدي: "لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"، وقال الإمام ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن، وقال الإمام ابن تيمية: "معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يُورث العلم بالمسبب"(٣).

تاسعاً: الاعتماد على الاسرائيليات من غير تثبت أو تحقق : إن التحدث عن بني إسرائيل جائز إذا لم يُخش منه محذور؛ لقول النبي ﷺ: (بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)(٤)، وغالب ما يُروى عنهم في ذلك ليس له فائدة في الدين كتعيين لون كلب أصحاب الكهف، ونوع الطيور التي أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام بذبحها عندما قال له : ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[البقرة: ٢٦٠] ، وغير ذلك. وأما أخذ شيء من أمور الدين عن أهل الكتاب، والتحديث عنهم في ذلك، فإنه لا يجوز ؛ لما جاء عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء؛ فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق، وإنه لو

---

(١)جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٥/ ٥٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي (٢/ ٦٢).

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٩٠).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٠)، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم٣٤٦١.

كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني"(١)، وعن ابن عباس ﵁ أنه قال: " يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضا، لم يُشب، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتاب الله، وغيّروا، فكتبوا بأيدهم، قالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا بذلك ثمنا قليلا أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم "(٢). لذا فإن موقف الإسلام من الإسرائيليات ينحصر في ثلاثة أمور، من جهلها قد يقع في الفهم الخاطئ لبعض النصوص القرآنية، وهي كما يلي:

١. **ما أقره الإسلام**: ومثاله ما جاء عن ابن مسعود ﵁ أن حبراً من الأحبار جاء إلى النبي ﷺ ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ؛ تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] (٣).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢/ ٤٦٨)، حديث رقم١٤٦٣١.

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ١٥٣)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى : "كل يوم هو في شأن"، و "ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث"، وقوله تعالى "لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا"، حديث رقم٧٥٢٣.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ١٢٦)، كتاب التفسير، باب قوله "وما قدروا الله حق قدره"، حديث رقم٤٨١١.

٢. ما أنكره الإسلام وأبطله: ومثاله عن جابر ﵁، قال: كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها، جاء الولد أحول؛ فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾[البقرة: ٢٢٣]⁽¹⁾.

٣. ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه: لما جاء عن أبي هريرة ﵁، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم ، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ⁽²⁾.

عاشراً: عدم معرفة مدلولات ألفاظ اللغة العربية، ومخالفة الراسخين في العلم: فمثلاً زعم الخوارج في مذهبهم أنه لا تحكيم ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام: ٥٧] ؛ لأن اللفظ ورد بصيغة العموم، فلا يلحقه تخصيص ؛ فلذلك أعرضوا عن قول الله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] ، وقوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٥] ، وإلا فلو علموا تحقيقاً قاعدة العرب في أن العموم يراد به الخصوص؛ لم يسرعوا إلى الإنكار، وكثيرا ما يوقع الجهل بكلام العرب في مجاز لا يرضى به عاقل، فمثل هذه الاستدلالات لا يعبأ بها، وتسقط مكالمة أهلها، ولا يعد خلافٌ أمثالهم، وما استدلوا عليه من الأحكام الفرعية أو الأصولية؛ فهو عين البدعة ؛ إذ هو خروج عن طريقة كلام العرب إلى اتباع الهوى⁽³⁾، فالله ﷿ أنزل القرآن عربيا لا عجمة فيه، بمعنى أنه جاء في ألفاظه

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٩)، كتاب التفسير، باب "نساؤكم حرث لكم"، حديث رقم٤٥٢٨.

(٢) أخرجه البخاري (٦/٢٠) ، كتاب التفسير ، باب "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا"، حديث رقم٤٤٨٥.

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ٣٠٣) بتصرف.

ومعانيه وأساليبه على لسان العرب، وكان المنزل عليه القرآن عربياً أفصح من نطق بالضاد وهو النبي ﷺ ، وكان الذين بُعث فيهم عربا أيضا، فجرى الخطاب به على معتادهم في لسانهم، فليس فيه شيء من الألفاظ والمعاني إلا وهو جار على ما اعتادوه، ولم يداخله شيء بل نفى عنه أن يكون فيه شيء أعجمي، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] هذا وإن كان النبي ﷺ بُعث للناس كافة فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعا للسان العرب، وإذا كان كذلك فلا يُفهم كتاب الله –تعالى– إلا من الطريق الذي نزل عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها، فإذا ثبت هذا فعلى الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أصولا وفروعا أمران، أحدهما: أن لا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيا أو كالعربي في كونه عارفا بلسان العرب، بالغا فيه مبالغ العرب، والأمر الثاني أنه إذا أشكل عليه في الكتاب أو في السنة لفظ أو معنى فلا يقدم على القول فيه دون أن يستظهر بغيره ممن له علم بالعربية، فقد يكون إماما فيها، ولكنه يخفى عليه الأمر في بعض الأوقات، فالأولى في حقه الاحتياط، إذ قد يذهب على العربي المحض بعض المعاني الخاصة حتى يسأل عنها، وقد نقل شيء من هذا عن الصحابة – وهم العرب – فكيف بغيرهم"(١).

الحادي عشر: لَيُّ أعناق النصوص، وتحريف الأدلة عن مواضعها: فمن الأسباب التي تؤدي إلى الفهم الخاطئ في تدبر القرآن: لَيّ أعناق النصوص، وتحريف الأدلة عن مواضعها، وبناء الظواهر الشرعية على تأويلات لا تعقل، فالباطنية مثلاً عدّوا كل ما ورد في الشرع من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية؛ فهي أمثلة ورموز إلى بواطن، فمثلاً: زعموا أن الجنابة مبادرة الداعي للمستجيب بإفشاء سر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق،

---

(١) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٨٠٤ – ٨١٠) بتصرف، وانظر الأمثلة التي ذكرها من القرآن الكريم التي توضح هذا المفهوم (ص٨١٠-٨١٦).

ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك، ومعنى مجامعة البهيمة مقابحة من لا عهد له ولم يؤد شيئا من صدقة النجوى، وهو مئة وتسعة عشر درهما عندهم؛ قالوا: فلذلك أوجب الشرع القتل على الفاعل والمفعول بها، وإلا فالبهيمة متى يجب القتل عليها ؟!، والصيام هو الإمساك عن كشف السر، ولهم من هذا الإفك كثير في الأمور الإلهية وأمور التكليف وأمور الآخرة، وكله حوم على إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً(١).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: أَمْثِلَةٌ للفَهْمِ الخَاطِئِ فِي تَدَبُرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

إن الأمثلة للتدبر الخاطئ لكتاب الله كثيرة ولا يمكن حصرها في هذا البحث ؛ لذا سأكتفي بذكر بعض منها التي تفي بالغرض:

١. لما قرأ النبي ﷺ على عدي بن حاتم الطائي ﵁ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] ، وقد كان نصرانياً قبل إسلامه، فقال: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدُهم، فقال له النبي ﷺ مصححاً له هذا الفهم: (أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟ قال عدي ﵁: بلى، قال: فتلك عبادتهم)(٢).

٢. وها هو أبو بكر الصِّدِّيق ﵁ يريد أن يصحِّح فهماً خاطئاً عند الناس في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[المائدة: ١٠٥] ، فعندما ظن البعض أن في الآية دلالة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاكتفاء

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي (٣٢٢/١) بتصرف، وانظر الصفحات التي بعدها.

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٢١٠/١٤)، والحديث أخرجه الترمذي في سننه (١٧٣/٥)، أبواب تفسير القرآن، باب "ومن سورة التوبة"، حديث رقم٣٠٩٥.

بصلاح النفس، قام ﷺ في الناس خطيباً، قال: " أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال: (إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله ﷻ، أن يَعُمَّهُمْ بعِقَابه)(١) لذلك قال ابن كثير: "ليس في الآية مستَدلٌّ على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكنًا"(٢).

٣. وقد أراد عمر ﷺ زمن خلافته إقامة الحد على قدامة بن مظعون الجمحي وهو ممن هاجر إلى الحبشة، حين شهد عليه الشهود بأنه شرب الخمر، فقال قدامة: ليس لك ذلك لأن اللّه يقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣] ، فقال عمر: إنك أخطأت التأويل يا قدامة، إذا اتقيت اجتنبت ما حرم اللّه، وأجاب ابن عباس: إن هؤلاء الآيات أُنزلن عذرا لمن غبر (أي مات قبل تحريمها)، وحجة على الناس، فقال عمر: صدقت، ماذا ترون؟، فرأى علي والصحابة حده، فجُلد ثمانين جلدة(٣).

٤. وهذا ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ﷺ يناظر الخوارج الذين خرجوا على علي ﷺ فيدحض شبهاتهم، ويصوّب الفهم الخاطئ الذي وقع في قلوبهم بسبب تأويلهم الخاطئ لكتاب الله، فكان مما زعموا أن علياً ﷺ حكم الرجال في أمر الله، وقال الله –تعالى-: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[الأنعام: ٥٧] ، قالوا: وما للرجال وما للحكم؟، فرد عليهم ابن عباس ﷺ: أما قولكم: حكَّم الرجال في أمر الله، فأنا أقرأ عليكم ما قد رد حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم في أرنب، ونحوها من الصيد، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟

---

(١) انظر: مسند أحمد (١/٢٠٨)، حديث رقم ٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٢١٢).

(٣) انظر: التفسير المنير للزحيلي (٧/ ٤٢).

ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ ﴾[المائدة: ٩٥] إلى قوله : ﴿ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ [المائدة: ٩٥] ، فنشدتكم الله، أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل، أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم؟، وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصير ذلك إلى الرجال، وفي المرأة وزوجها قال الله ﷻ: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ ﴾[النساء: ٣٥]، فجعل الله حكم الرجال سنة مأمونة، أخرجت عن هذه ؟ قالوا: نعم، فكانت النتيجة أن رجع منهم عشرون ألفا، وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا(١).

٥. وفي زماننا لجأ بعض من أهل العلم إلى تحريم العمليات الاستشهادية(٢)، معدين ذلك من أنواع الانتحار الذي نهى الله ﷻ ورسوله ﷺ عنه، مستدلين بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾[البقرة: ١٩٥] ، والحق أن المراد بالتهلكة في الآية هو ترك الجهاد والنفقة في سبيل الله كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين(٣)، وليس الإثخان في العدو، بل إنه لما أنكر الناس يوم القسطنطينية على رجل من المسلمين قد حمل على صفوف الروم وقد دخل فيهم، فقالوا: لا إله إلا الله، يلقي بنفسه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرا دون

---

(١) جزء من مناظرة ابن عباس ﷺ للخوارج، أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ١٥٧)، حديث رقم ١٨٦٧٨، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/١٥٠)، حديث رقم ٢٦٠٧، ويعقوب الفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٥٢٣).

(٢) العمليات الاستشهادية وسيلة من وسائل الإثخان في العدو، إذ يقوم بعض المجاهدين بتفجير أنفسهم وسط تجمع لصفوف العدو، موقعين فيهم عدداً من الجرحى والقتلى.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (٢/ ٣٦١).

رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] ، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو والجهاد في سبيل الله(١).

٦. وفي زماننا يزعم البعض ممن انجرف وراء أهوائه أن في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠] نهيٌ عن أكل الربا أضعافاً مضاعفةً، كأن يؤخذ مائة بالمائة أو ثلاثمائة بالمائة وهكذا، أما إذا أخذنا شيئاً يسيراً، كأن يؤخذ خمسة بالمائة أو سبعة بالمائة أو ثلاثة بالمائة، فهذا ليس فيه شيء؛ لأنه الله ﷻ يقول: ﴿ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾، وهذا ليس فيه أضعاف مضاعفة كما يزعمون، والذي يتأمل هذا الأمر وهذه النتيجة يجد أن صاحبها قد وقع في التخبط والجهل والضلال البعيد، إذ أن هذه الآية لها سبب نزول لا يصح التغافل عنه أو تجاهله، ففي الحقيقة هذه الآية تنكر واقعاً ربوياً قد تعارف عليه العرب في الجاهلية، فقد كان الواحد منهم إذا استلف من الآخر نقوداً، ثم جاء موعد السداد ولم يؤد الذي عليه مع النسبة الربوية، مثلاً يقول له الشخص الآخر صاحب المال: أؤجلك سنة وأضاعف عليك النسبة، وتأتي السنة التي بعدها ولم يستطع الأداء، يقول له: أؤجلك سنة أخرى وأضاعف عليك النسبة(٢)، فهذه الآية في بيان فساد هذا الواقع، كلما عجز عن التسديد، أعطى له زيادة في المدة مع مضاعفة الربا، لكن الله ﷻ يقول في آية محكمة

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢/٣٢٠)، كتاب الجهاد، باب في قوله تعالى {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}، حديث رقم٢٥١٤ ، والترمذي في سننه (٥/ ٨٢)، أبواب تفسير القرآن، باب "ومن سورة البقرة"، حديث رقم٢٩٧٢. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٧/ ٢٠٤) بتصرف.

أخرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ، ثم يقول مهدداً: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: مِنْ نتاج الفَهْمِ الخَاطِئِ فِي تَدَبُرِ القُرْآنِ

أولاً: تكوين **تصورات خاطئة عن أقوام من البشر:** فمثلاً يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ [المائدة: ٨٢] ، ففي فهم هذه الآية تجد بعضهم يقول أنها دليل على أن النصارى يحبوننا، فتجده قد وقع في شراك المبشِّرين من النصارى الذين يستعملون هذه الآية في دعواهم الزائفة مع بعض عامة المسلمين لإزالة الحواجز التي ترسّخت بفعل العقيدة الإسلامية الصحيحة، وكذلك تجد بعض المسلمين يلين للنصارى كثيراً ويشاركهم في معتقداتهم، ولا ينكر عليهم، بل لا يكلّف نفسه حتى بالنصح لهم ؛ لأنه قد فهم هذه الآية فهماً خاطئاً، فهو لم يتأمل قول الله كاملاً، يقول سيد قطب: "إن هذه الآيات تصوّر حالة، وتقرر حكماً في هذه الحالة، ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالا للشك في أنها تصور حالة معينة، هي التي ينطبق عليها هذا التقرير المعين، فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة، وموقف هذه المعسكرات منهم"(١)، فانظر إلى تكملة الآيات التي بعدها قد بينت سبب هذه المودة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٥] ،

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ٩٦٢) بتصرف.

فالآيات بيّنت أن سبب هذه المودة هو أنهم لا يستكبرون عند تقبل الحق، ثم إنهم يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ، ويسلمون عند ذلك، وذُكر أن هذه الآيات قد نزلت في النجاشي وأصحابه الذين قد أسلموا واتبعوا الرسول ﷺ(١)، وقال الطبري: "الصواب أنّ الله –تعالى– لم يسمِّ لنا أسماءهم، ويجوز أن يكون أصحابُ النجاشي، ويجوز أن يكونوا قومٌ كانوا على شريعة عيسى، فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه(٢).

ثانياً: الفهم الخاطئ يوقع في حبائل أهل الهوى: فعدم الفهم الصحيح للقرآن يوقع المسلم في حبائل أهل السوء، ويجعله يقع أيضاً في الحرام وتتلبس عليه الأمور، فخذ على سبيل المثال بعض أهل الأهواء ذهبوا بأن شرب الخمر ليس بحرام تبعاً لأهوائهم وتلبية لرغباتهم المنحرفة، مستدلين بأنه القرآن لم يمنعها بصيغة التحريم، متغافلين أن الله ﷻ قال: ﴿ فَٱجۡتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة: ٩٠] ، واجتناب الشيء يعني الابتعاد عنه بحيث يكون بينك وبينه جانب، وهو أبلغ من النهي عن مجرد الفعل ؛ إذ هو نهي عن الفعل ومقدماته معًا(٣)، وغير ذلك من الأدلة التي ترد هذا الزعم الفاسد(٤).

ثالثاً: الفهم الخاطئ يؤدي إلى الشعور بتناقض القرآن: ومثاله ما روى البخاري عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس ؓ ، فقال: " إني أجد في القرآن أشياء

---

(١)جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٤٩٩/١٠).

(٢) المرجع السابق (٥٠١/١٠).

(٣) انظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم للدكتور يوسف القرضاوي ص٢٨٠.

(٤) قد أسهب الدكتور يوسف القرضاوي – حفظه الله–، بالرد على هذا الاستدلال الفاسد، في الجزء الأول من كتابه فتاوى معاصرة، تحت عنوان تحريم الخمر من قطعيات الدين. انظر: فتاوى معاصرة للدكتور يوسف القرضاوي (١/ ٦٤٤-٦٤٨).

تختلف عليَّ، قال: وما هو؟ قال: قال الله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ، وقال: ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الطور: ٢٥] ، فقال ابن عباس ؓ: "فلا أنساب بينهم في النفخة الأولى، ثم في النفخة الثانية: أقبل بعضهم على بعض يتساءلون"(١). قال الإمام الشاطبيُّ: "إن الذي عليه كل موقن بالشريعة أنه لا تناقض فيها ولا اختلاف، فمن توهم ذلك فيها فهو لم يمعن النظر ولا أعطى وحي الله حقه ؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾[النساء: ٨٢] فحضهم على التدبر أولاً، ثم أعقبه: ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ٨٢] فبيّن أنه لا اختلاف فيه ، وأن التدبر يعين على تصديق ما أخبر به(٢).

رابعاً: عدم الفهم يؤدي إلى الاعتقاد بمخالفة القرآن للوقائع والحوادث التاريخية:

فمثلاً لما قدم المغيرة بن شعبة ؓ على نصارى نجران، قالوا له: إنكم تقرؤون: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ [مريم: ٢٨] ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته، فقال: (ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم)(٣).

خامساً: الفهم الخاطئ يؤدي إلى الافتراء على الأنبياء واتهامهم بما لا يتصوره مسلم:

فعلى سبيل المثال الذي يقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ، قد يسيئ الظن بخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، بأنه كان يشك بقدرة الله ﷻ على إحياء الموتى! حاشاه ذلك، فإن النبي ﷺ، يقول:

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٢٧)، كتاب التفسير، سورة (حم) السجدة.

(٢) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٨٣١).

(٣) أخرجه مسلم (١٦٨٥/٣)، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، حديث رقم٢١٣٥.

(نحن أحق بالشك من إبراهيم)(١)، قال الإمام النووي: " اختلف العلماء في معنى نحن أحق بالشك من إبراهيم، على أقوال كثيرة أحسنها وأصحها : معناه : إن الشك مستحيل في حق إبراهيم ، فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم، وقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم عليه السلام لم يشك، وإنما خص إبراهيم عليه السلام لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منها احتمال الشك"(٢).

سادساً: إخضاع الآيات القرآنية لمخترعات الكفار بسبب الفهم الخاطئ: فمثلاً ذهب بعضهم إلى أن جهاز التبريد موجود في القرآن، واستدل بقوله: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣] ، يعني: من الداخل رحمة وبرودة، ومن الخارج عذاب وحر ! وأحدهم يقول: الطائرات موجودة في القرآن؛ لأن الله يقول: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤] ، وغير ذلك من التفسيرات الشاذة، وفي ذلك يقول العلامة الشنقيطي: "التلاعب بكتاب الله وتفسيره بغير معناه، لمحاولة توفيقه مع آراء كفرة الإفرنج، ليس فيه شيء البتة من مصلحة الدنيا ولا الآخرة، وإنما فيه فساد الدارين، وإذ نمنع التلاعب بكتاب الله وتفسيره بغير معناه، نحض جميع المسلمين على بذل الوسع في تعليم ما ينفعهم من هذه العلوم الدنيوية مع تمسكهم بدينهم، كما قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠] (٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٩/٤)، كتاب الفضائل، باب فضائل إبراهيم الخليل ﷺ ، حديث رقم١٥١.

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٨٣).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي (٢/ ٢٦٥).

المَبْحَثُ الخَامِسُ: سُبُلُ الوِقَايَةِ والعِلَاجِ مِنَ الفَهْمِ الخَاطِئِ فِي التَّدَبُرِ

هناك ضوابط يجب أن يُراعيَها كل من أراد تدبر وفهْم القرآن الكريم كي تكون تلاوته وتدبره على بصيرة؛ تأتي ثمارها كل حين بإذن ربها، ومن هذه الضوابط ما يلي:

أولاً: جمع الآيات القرآنية أو بعضها ذات العلاقة بالآية المراد فهمها وتدبرها، وهذا ما يُعرف بتفسير القرآن بالقرآن: وذلك لأن القرآن الكريم يصدِّق بعضه بعضاً، ويفسِّر بعضه بعضاً، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] ، قال ابن تيمية: "أصح الطرق في ذلك أن يُفسّر القرآن بالقرآن؛ فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، وما اختُصر من مكان فقد بسط في موضع آخر"(١).

ثانياً: جمع الأحاديث النبوية الثابتة أو بعضها ذات العلاقة بالآية المراد فهمها وتدبرها، وهذا ما يُعرف بتفسير القرآن بالسنة: فمن الواجب لكي نفهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً بعيداً عن التحريف، والانتحال، وسوء التأويل، أن نفهمه في ضوء السنة النبوية ؛ لأن القرآن روح الوجود الإسلامي، وأساس بنيانه، والسنة شارحة له، وهى البيان النظري، والتطبيق العملي للقرآن، وما كان للبيان أن يناقض المبيَّن، ولا الفرع أن يعارض الأصل(٢)، ولهذا لا توجد سنة صحيحة ثابتة تعارض محكمات القرآن، وإذا ظن بعض الناس وجود ذلك، فلا بد أن تكون السنة غير صحيحة، أو يكون فهمنا لها غير صحيح، أو يكون التعارض وهمياً لا حقيقياً، قال ابن تيمية: "فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له؛ بل قد قال الإمام الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٦٣).

(٢) أزمة الفهم في الصحوة الإسلامية ليوسف فرحات (١ /٢١).

فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ [النساء: ١٠٥] ، ولهذا قال رسول الله ﷺ: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"(١)، يعني السنة، والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن؛ لا أنها تتلى كما يتلى، والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة، كما قال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال أجتهد رأيي. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله"(٢) (٣).

ثالثاً: الرجوع إلى أقوال العلماء عند تدبر الآيات وفي مقدمتهم السلف الصالح من الصحابة ﷺ والتابعين الكرام: لذلك يقول ابن تيمية: "وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح؛ لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين"(٤)، وقال أيضاً: "إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"(٥)، وفي ذات المعنى يقول عمر بن عبد العزيز: "سنّ رسول اللّه ﷺ وولاة الأمور بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب اللّه، واستكمال لطاعة اللّه، وقوّة على

---

(١) مسند أحمد (٤١٠/٢٨)، حديث رقم ١٧١٧٤.

(٢) مسند أحمد (٣٦/ ٣٣٣)، حديث رقم ٢٢٠٠٧.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٦٣ - ٢٦٤) بتصرف.

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٦٤/١٣).

(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٦٨/١٣).

دين اللّه، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النّظر فيما خالفها، من اقتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر فهو منصور، ومن خالفها واتّبع غير سبيل المؤمنين ولّاه اللّه ما تولّى وأصلاه جهنّم وساءت مصيرًا"(١)، ثم إنا نستعين على فهم كتاب الله، بالتفاسير المتداولة المعتبرة، ومن أجلها لدينا: تفسير ابن جرير، وتفسير ابن كثير ، وكذا البغوي، والبيضاوي، والخازن، والحداد، والجلالين، وغيرهم، وعلى فهم الحديث، بشروح الأئمة المبرزين: كالعسقلاني، والقسطلاني، على البخاري، والنووي على مسلم، والمناوي على الجامع الصغير(٢).

رابعاً: معرفة مدلولات ألفاظ الكلمة القرآنية بالرجوع إلى دواوين الشعر واللغة، يساعد ذلك على الفهم والتدبر: لذلك يقول ابن عباس ﷺ: "إذا سألتموني عن عربية القرآن، فالتمسوه بالشعر فإن الشعر ديوان العرب"(٣)، فكي تُفهم دلائل الكتاب والسنة على الوجه الصحيح لابد من معرفة لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم ، والتي خاطب بها رسول الله ﷺ أصحابه ؛ ولهذا تواتر اعتناء علماء الأمة وأئمتها بلغة القرآن حتى يوضع خطاب الشارع في موضعه اللائق به شرعاً، قال الإمام الشافعي : "وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره ؛ لأنه لا يعلم من إيضاح جمع علم الكتاب أحدٌ جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشُّبه التي دخلت على من جهل لسانها ، فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه"(٤)، وقال ابن عبد البر : "ومما يستعان به على فهم الحديث ما ذكرناه من العون على كتاب الله ﷻ، وهو العلم بلسان العرب،

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (١/ ١٥٩).

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية الرقمية لعلماء نجد الأعلام (١/ ٢٢٨).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ١٩٨).

(٤) الرسالة للشافعي ص٢٠.

ومواقع كلامها، وسعة لغتها، وأشعارها، ومجازها، وعموم لفظ مخاطبتها، وخصوصه، وسائر مذاهبها لمن قدر، فهو شيء لا يُستغنى عنه ، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يكتب إلى الآفاق أن يتعلموا السنّة والفرائض واللحن يعني النحو كما يُتعلم القرآن"(١)، وقال ابن تيمية: "ولابد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها ممّا يُعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدّعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك(٢).

خامساً: مراعاة السياق التي مرّت به اللفظة القرآنية: فيجب أن تربط الآية بالسياق التي وردت فيه ولا تُقطع عما قبلها وما بعدها، ثم تُجرّ جرّاً، لتفيد معنى، أو تؤيد حكماً يقصده قاصد(٣)، قال الزركشي: " دلالة السياق ترشد الى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] ، كيف تجد سياقه؟ يدل على أنه الذليل الحقير"(٤).

سادساً: معرفة أسباب النزول تعين على فهم النص القرآني، مع الانتباه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: فالإمام الشاطبي يقول: "معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ٣٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧ /١١٦).

(٣) كيف نتعامل مع القرآن العظيم للدكتور القرضاوي ص٢٣٨.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٢٠١ -٢٠٢).

علم القرآن"(١)، وقال الإمام ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن، وقال الإمام ابن تيمية: "معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يُورث العلم بالمسبب"(٢).

سابعاً: الإحاطة بعلم الناسخ والمنسوخ يعين على فهم القرآن فهماً دقيقاً: والمراد بالنسخ رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي(٣) ؛ لذلك يُشترط في النسخ أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطابًا شرعيًّا متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه، وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدًا بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته ولا يُعَد هذا نسخًا، ولقد جاء عن الصحابة ﷺ مما يبين أهمية هذا العلم في فهم القرآن، قال ابن مسعود ﷺ: " وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ"(٤).

ثامناً: التجرد من الأهواء والتصورات والنظريات السابقة، وجعل القرآن متبوعاً لا تابعاً، وحاكماً لا محكوماً، وأصلاً لا فرعاً: وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وليس لأحدٍ أن يَحْمِلَ كلامَ اللهِ ورسولِهِ على وِفْقِ مذهبِهِ إنْ لم يتبينْ مِنْ كلامِ اللهِ ورسولِهِ ما يدلُّ على مرادِ اللهِ ورسولِهِ وإلا فأقوالُ العلماءِ تابعةٌ لقولِ اللهِ تعالى ورسولِهِ، ليس قولُ اللهِ ورسولِهِ

---

(١) الموافقات للشاطبي (٣/ ٣٤٧).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٩٠).

(٣) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٢٢٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ١٨٧)، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم٥٠٠٢، وأخرجه مسلم (٤/ ١٩١٣)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن مسعود وأمه، حديث رقم٢٤٦٣.

تابعًا لأقوالِهِم"(١)، فمن أراد الفهم الصحيح لكتاب الله عليه أن يُقيِّدَ نفسه باتباع القرآن والسنة وعدم مخالفتهما، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١] ، قال ابن كثير: " لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعا له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ، إذ قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: "بم تحكم؟" قال: بكتاب الله. قال: "فإن لم تجد؟" قال: بسنة رسول الله. قال: "فإن لم تجد؟" قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: (الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله، لما يرضي رسول الله)(٢)، فالغرض منه أنه أخَّر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله"(٣)، وقال معاذ بن جبل ﵁: " اتّخذ كتاب اللّه إماما، وارض به قاضيا وحكما، فإنّه الّذي استخلف فيكم رسول اللّه ﷺ، شفيع مطاع، وشاهد لا يتّهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم"(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٣٥).

(٢) مسند أحمد (٣٣٣/٣٦)، حديث رقم ٢٢٠٠٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٦٤/٧).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني (٢٥٢/١-٢٥٣).

الخَاتَمَةُ

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد أتم الله علينا نعمته بتمام هذه الدراسة، وكانت أهم نتاج هذه الدراسة، ما يلي:

١. تدبّر القرآن هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبّره وتعقّله.

٢. الفهم الخاطئ في تدبر القرآن له أسباب متعددة، أهمها: (الزيغ والانحراف العقدي- اتباع الهوى- الكبر- التعصب والتقليد الأعمى- اتباع المتشابهات وترك المحكم من كتاب الله- الاعتماد على الأحاديث الواهية والضعيفة ، ورد الأحاديث الثابتة والصحيحة- الجهل بالناسخ والمنسوخ- الجهل بأسباب النزول- الاعتماد على الاسرائيليات من غير تثبت- عدم معرفة مدلولات ألفاظ اللغة العربية- لَيُّ أعناق النصوص، وتحريف الأدلة عن مواضعها).

٣. للفهم الخاطئ آثار ونتائج سلبية منها: (تكوين تصورات خاطئة عن أقوام من البشر- يوقع في حبائل أهل الهوى- يؤدي إلى الشعور بتناقض القرآن- الاعتقاد بمخالفة القرآن للوقائع والحوادث التاريخية- فقدان المعايير الصحيحة للحكم على الناس، وقد يضع أناس في غير منازلهم- الافتراء على الأنبياء واتهامهم بما لا يتصوره مسلم- إخضاع الآيات القرآنية لمخترعات الكفار).

٤. من سبل الوقاية والعلاج من الفهم الخاطئ ما يلي: (جمع الآيات القرآنية أو بعضها ذات العلاقة بالآية المراد فهمها وتدبرها، وهذا ما يُعرف بتفسير القرآن بالقرآن- جمع الأحاديث النبوية الثابتة أو بعضها ذات العلاقة بالآية المراد فهمها وتدبرها، وهذا ما يُعرف بتفسير القرآن بالسنة- الرجوع إلى أقوال العلماء عند تدبر الآيات وفي مقدمتهم السلف الصالح من الصحابة ﷺ والتابعين الكرام- معرفة مدلولات ألفاظ الكلمة

القرآنية بالرجوع إلى دواوين الشعر واللغة- مراعاة السياق التي مرت به اللفظة القرآنية- معرفة أسباب النزول تعين على فهم النص القرآني، مع الانتباه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب- الإحاطة بعلم الناسخ والمنسوخ- التجرد من الأهواء والتصورات والنظريات السابقة، وجعل القرآن متبوعاً لا تابعاً، وحاكماً لا محكوماً، وأصلاً لا فرعاً).

توصيات الدراسة:

١. توصي الدراسة بالحرص على التخلق بأخلاق القرآن الكريم قولاً وعملاً وسلوكاً.

٢. كما وتوصي بالاهتمام بالتدبر واستخراج الحكم والمفاهيم والعبر من كتاب الله.

٣. وتوصي الدراسة بالعمل على نشر ثقافة التدبر والتحذير من معوقات تدبر القرآن وفهمه فهماً سليماً.

٤. لا بد من مزيد من الكشف عن الأسباب الأخرى للفهم الخاطئ وتجليتها وتصويبها.

٥. لا بد من وضع أسس وضوابط وقواعد للفهم وتدبر كتاب الله -سبحانه وتعالى- وتدبره.

المَصَادِرُ والمَرَاجِعُ

- القرآن الكريم.

١. الاتقان في علوم القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد- السعودية، ط١.

٢. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، بيروت، دار المعرفة.

٣. أزمة الفهم في الصحوة الإسلامية (التشخيص والعلاج)، يوسف فرحات، مؤتمر الإسلام والتحديات المعاصرة، كلية أصول الدين- الجامعة الإسلامية- غزة، ٢-٣/٤/٢٠٠٧م.

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٥. الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت٧٩٠)، دار ابن عفان سنة النشر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٦. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة- بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

٧. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٣، ١٩٨٤م- ١٤٠٤هـ.

٨. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت٨١٦هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

٩. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٠. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر- دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ.

١١. جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري (ت٣١٠ هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٢. الجامع الكبير (سنن الترمذي)، عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الجيل ودار العرب الإسلامي- بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.

١٣. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة،ط١، ١٤٢٢هـ.

١٤. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي المشهور بابن عبد البر (ت٤٦٣هـ)، تحقيق أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان- دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٤-٢٠٠٣هـ.

١٥. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية — القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

١٦. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف–الرياض، ١٤٠٣هـ.

١٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، القاهرة، دار الرياض، ط٥، ١٤٠٧هـ، وبيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

١٨. الدرر السنية في الأجوبة النجدية الرقمية، تأليف علماء نجد الأعلام، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، موقع مكتبة المدينة الرقمية، ط٦، ١٤١٧هـ–١٩٩٦م.

١٩. الرسالة، الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي المطلبي الشافعي المكي (ت٢٠٤هـ)، تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء، المنصورة– مصر، ط١، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م.

٢٠. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الجيل، ط١، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م.

٢١. سنن أبي داود بحاشيته عون المعبود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت٢٧٥هـ)، دار الكتاب العربي.

٢٢. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي — بيروت.

٢٣. فتاوى معاصرة (الجزء الأول)، د. يوسف القرضاوي، دار القلم – الكويت، ط٣، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

٢٤. في ظلال القرآن، الشهيد سيد قطب إبراهيم، دار الشروق– القاهرة.

٢٥. كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق – القاهرة، ط٨، ٢٠١١م.

٢٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)، دار صادر– بيروت، ط١.

٢٧. مباحث في علوم القرآن، د. مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧.

٢٨. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٩. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، بيروت (ت٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٨هـ.

٣٠. المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، أبوعبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت٤٠٥هـ)، دار المعرفة-بيروت.

٣١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-عادل مرشد وآخرون، بإشراف د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٣٢. المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي-بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٣٣. المعرفة والتاريخ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت٢٧٧هـ)، تحقيق: د. أكرم العُمَري، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٣٤. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٣٥. منهاج السنة النبوية، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط١٤٠٦،١هـ.

٣٦. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (شرح النووي على صحيح مسلم)، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (ت٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٣٧. الموافقات في أصول الأحكام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت٧٩٠هـ)، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة – بيروت.